أ.م.د/ حسين لفته حافظ
جامعة واسط – العراق

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد الامين وآل بيته الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر الميامين وبعد ...

فقد قطع النقد العربي زمنا طويلا من التأسيس إلى الصيرورة ومن ثم الانوجاد، وتخلى عن معايير نقديّة كثيرة ، وشقق عن معايير نقدية أخرى ، ابتداء من الذوقية ، ومرورا بالطبقات ، وانتهاء بالموازنة ، ولا شك ان النقد في رحلته الطويلة هذّب نفسه من بعض التقنيات واجترح تقنيات جديدة ، وألمح في تحولاته الى كينونة نقدية هجينة تمثل ما وراء الذوقية ، وتتأتى له من تماهي الفكر الإنساني بمعارف عقلية مختلفة تترجح بين الحجاج والفلسفة والمنطق والدين .

يبدو انّ القدرة العقلية بدأت تتحكم بالنصوص الادبية بوساطة البحث عن الدليل والبرهان الذي تغذيه مراتب القول التي افرزتها الصراعات المجتمعية , وتوجب تلك المراتب القولية على الاديب والمنشئ , ان يميل الى الاتكاء على العقل مغلبا اياه على الخيال فينتج ما يسمى بالحجج الصناعية بحسب ما اقره ارسطو , وقد قسمها على ثلاثة انواع , الحجج اللغوية المنطقية , والحجج الاخلاقية , والحجج الانفعالية ([1])

ويمكن للباحث ان يرصد في الموروث النقدي العربي ميلا الى الربط بين الخيال والعقل , وكما هو حاصل في الربط بين المجاز والعقل بلاغيا , فالمجاز " يقع تارة في الإثبات، وتارة في المثْبَت، وأنه إذا وقع في الإثبات فهو طالع عليك من جهة العقل، وبادٍ لك من أُفُقِهِ وإذا عرض في المثَبت فهو آتيك من ناحية اللغة"([2])

او كما جاء في محاولة القدماء استنباط الدلالات وما بينها من علاقات عقلية , اذ يمكن " ايراد المعنى الواحد على صور مختلفة لا يتأتى الا في الدلالات العقلية , وهي الانتقال من معنى الى معنى بسبب علاقة بينهما , كلزوم احدهما الاخر بوجه من الوجوه " ([3]) .

ولا نعدم ان نجد من اشار الى الاقناع في الاقاويل الشعرية , وان شان الشعر شان الخطبة , فاذا ما وجدت المحاكات في الشعر جنبا الى جنب مع الاقناع , فانه افضل له ولا يقدح ذلك فيه , اذ قد توجب صناعة الشعر ان نستعمل شيئا من الاقناع , كما نستعمل شيئا يسيرا من المتخيلات في الخطابة ([4]), وما يضر التداخل بين الشعر والخطابة قول الشاعر :

---

[1] – ينظر الحجاج مفهومه ومجالاته : 63/4.

[2] – اسرار البلاغة :374.

[3] – مفتاح العلوم :438.

[4] – ينظر : منهاج البلغاء وسراج الادباء : 347.

وما الشعر الا خطبة من مؤلف ... يجيء بحق او يجيء بباطل ([1])

ولم يكن الفلاسفة المسلمون بمعزل عن الاثر الارسطي , اذ المح الكندي وابن سينا الى دور العقل في توجيه الفكر والتخييل ([2]) , فلا يخلو الشعر الخيالي من تجذرات عقلية , فيغدو بذلك صناعة عقلية تكبح جماح الخيال ونزعته بالانطلاق نحو الإلهام والتلويح . ([3])

والمح القدماء الى قيمة العقل في التقريب بين الاشياء تشبيهيا , فالتشبيه تمثيل والتمثيل قياس عقلي , وغدا مفهوم التشبيه (قياس والقياس فيما تعيه القلوب , وتدركه العقول , وتستقي فيه الافهام والأذهان لا الأسماع والآذان)([4]), وتستثير النصوص متلقيها فتستميل العقل أولا , ذلك أنه اشعر الناس " من أنت في شعره حتى تفرغ منه "([5]), مما يجعل التعليق للأدب يخضع في جانب كبير منه الى طروحات العقل لما يتجلى في النواحي البنائية للنص من انساق موضوعية وفكرية وفنية ولغوية تأصيل لثيمة الحجاج , فالحجاج البلاغي مثلا " موجه للقلب والعقل معا , اذ يجمع بين المضمون العقلي للحجة , وصورتها البيانية , او بين التبرير العقلي والمحسنات البيانية " ([6]) .

ويتأتى القياس مدركا من مدركات العقل التي تستدعي شحذ حواس المتلقي الاخرى , ويهيمن العقل عليها ذلك ان " التشبيه والقياس فيما تعيه القلوب وتدركه العقول , وتُستفتى فيه الافهام والاذهان لا الاسماع والاذان "([7]) , وهذا ما يدفعنا الى تأييد من ذهب الى الربط بين الفكر والانفعال فالخيال الشعري يتصل بالفكر والنفس معا , بوساطة انعكاس عالم الحس على عالم المخيلة التي تعيد بناء المعطى الخارجي بين القلب والفكر او الانفعال والعقل ([8]),ولا شك ان النقاد القدامى وهم يتجهون الى الى تأسيس منهج عقلي في نقد الشعر انما ينطلقون من فرضيات التلقي , وما للمتلقي من دور في انتاج النص فالعلاقات البلاغية داخل النصوص الشعرية علاقات افتراضية يقوم المتلقي بمراجعتها ذهنيا لاستجلاء الاثر سواء ما وقع منها ضمن الاثر او ضمن الحقيقة العقلية او الواقع العملي ([9]).

وقد غذت العواطف العقل ، وكانت دافعا لاجتراح بعض تمفصلاته ، وفي ((ذلك فرضية تقول بأن العواطف يمكن أن تكون موضوعا يتنازع في شأنه المتنازعون ، وعليه تدور عملية البناء الحجاجي

---

[1] – المصدر نفسه :361.

[2] – ينظر : استقبال النص عند العرب :237–238, وموسوعة الشفاء :24.

[3] – ينظر نظرية الشعر عند الفلاسفة والمسلمين :67.

[4] – اسرار البلاغة , طبعة دار المدني 1991:ص15.

[5] – الشعر والشعراء :20/1.

[6] – الحجاج والاستدلال الحجاجي – عناصر استقصاء نظري , مجلة عالم الفكر : 109–110

[7] – اسرار البلاغة :15

[8] – ينظر قراءة التراث النقدي :258.

[9] – ينظر : الحجاج في القرآن الكريم :501

))([1]) وتأسس مذهب حجاجي يعد الحجاج القائم على الأدلة العقلية والمنطقية هو النموذج الأرقى للحجاج ([2]).

ويشي استقراء المدونة النقدية العربية القديمة ، بأن بعض النقاد العرب الأوائل قد ضاقوا ذرعا أحيانا ببعض الأحكام النقدية الجماليَّة ، إذ شكلت اللغة هاجس بحث يتأمل فيه الناقد معايير جديدة ، فقد ركن الأصمعي في بعض مدوناته النقدية إلى المنهج العقلي متحولا بالنقد العربي من الذوقية الفطرية التي جسدها في فحولة الشعراء إلى ألماحات نقدية عقلية في((ما أتفق لفظه واختلف معناه))([3]) ، ثم ثم انقلب بهذه الثنائية عقليا إلى ((ما اختلف لفظه واتفق معناه))([4]) .

وكان القرن الرابع الهجري عصر ازدهار النقد وتخليه عن نظرته البيانية الذوقية ، وخلوصه إلى التخصص واستقلال اتجاهاته ، ومالت الكفة في هذا القرن إلى نقاد الأدب على حساب نقاد اللغة ، وارتدوا بآرائهم إلى موروثهم الأدبي ، فظهر الصراع بين القديم والحديث ، وصنف المحدثون إلى ثلاثة أجيال متعاقبة انطلاقاً من بشار ومعاصريه ومروراً بأبي تمام وانتهاء عند المتنبي.

واتسم النقد في هذا القرن بمعالجات نقدية تقوم على بيان السرقات الأدبية التي شغلت النقاد كثيراً ، فمالوا إلى عقد الموازنات الشعرية ، وكان المتنبي بؤرة نقدية أدار النقاد حول شعره أفكارهم وكدوا خواطرهم ، فانقسموا من حوله على ثلاثة أقسام ، قسم ناصره ، وقسم ناصبه العداء ، وقسم حاول الإنصاف ، فكانت معركة شعرية طويلة الزمن لا تخلو من دوافع الاستدعاء([5]).

ولما كان التأليف في السرقات يفوق التأليف في الاتجاهات النقدية الأخرى التي شهدها القرن الرابع الهجري([6]) فان ابن وكيع التنيسي وضع كتابه المنصف للسارق والمسروق منه في إظهار سرقات أبي الطيب المتنبي ليكون ثمرة من ثمار المدونة النقدية في السرقات الشعرية.

ويبدو أن ابن وكيع التنيسي وهو في صدد تأليف كتابه اطلع على كتب الموازنات قبله ، وأفاد منها ، وحاول ان يختط منهجاً مغايراً لها ، يتخلى فيه عن المنهج الذوقي وتداعياته الجمالية ، ويسعى إلى تأسيس منهج عقلي يقوم على اشتغالات دلالية بدت له أول وهلة وهو يتصدى للرد على المعجبين

---

[1] منزلة العواطف في نظرية الحجاج :239

[2] – ينظر : م ـ ن : 240.

[3] – الفهرست :88.

[4] – نشرة مصطفى سلمان بدمشق ,1950م.

[5] – ينظر تاريخ النقد الادبي عند العرب :22.

[6] – ينظر المصدر نفسه : 136.

بشعر أبي الطيب المتنبي ، فلم يتسامح مع قول المعجبين ((وليس له معنى نادر ، ولا مثل سائر إلا وهو من نتاج فكره ، وأبو عذره ، فكان لجميع ذلك مبتدعاً ، ولم يكن متبعاً))[1].

ومما تجدر الإشارة إليه ان ابن وكيع التنيسي دار في فلك الموازنات النقدية وارتفع قليلاً عمن سبقه ممن ألف في هذه الخصومات النقدية ، ويتأتى له هذا الارتفاع من ملكته النقدية التي تشربت ملكته الشعرية وثقافته اللغوية ، ومما حُبِيَ به من فطرة صافية ، فحاول توظيف رؤاه العقلية مستقصياً الأشكال والأساليب والمعاني إذ ارتمس بدلوه في معركة كثر فيها الأنصار والخصوم ، وسما عنهم بوصفه شاعراً وناقداً.

ولا نجانب الصواب إذا قلنا إن ابن وكيع قد أمسك بزمام منهجه الذي تحصل له من طرفين، تمثل الطرف الأول في خبرة عقلية استنبطها من خياله الشعري الذي دلف به إلى ميدان شعراء عصره ، وتمثل الطرف الثاني في حصيلته النقدية مما أجاد به سابقوه من كتب الموازنات والخصومات والوساطات ، ذلك أن ((شيوع التدوين في قضية السرقات في هذا القرن الذي يشكل ابن وكيع مسك الختام فيه))[2].

وليس لنا أن نغفل جانباً آخر اتشح به منهج ابن وكيع التنيسي العقلي الذي بدا زاكياً في الدلف إليه إذ كان الصراع بين القديم والحديث يدور حول المخرجات العقلية للشعراء (المعاني)، وقد ذهب ابن وكيع وهو في صدد تفكيك المعاني عقلياً إلى الإفصاح عن الدلالات اللفظية والاكتفاء بالمعاني العقلية للكلام ؛ فأغفل تطوير المعاني وألمح بمحدوديتها ، وأوحى بصيرورتها علامات عقلية مقننة[3].

وأسهم أفق ابن وكيع الشعري ، وولوجه عمود الشعر العربي ، ووضعه ديوانا شعريا يتنابز فيه مع شعراء عصره ، ولا سيما المتنبي في أن يتجه خطابه إلى الآخر ظاهرا وباطنا ، فتتحول بنية الخطاب إلى ((بنية صراع وتوتر بين أنواتهم المخاطبة في تلك الخطابات من جهة ، وأولئك المخاطبين الذين ماانفكوا يتوجهون إليهم بخطاباتهم من جهة أخرى ، وهي مواجهة أخذت في خطابات هؤلاء الشعراء أشكالا مختلفة))[4].

ولما اطمأن ابن وكيع إلى ان منهجه تشوبه القصدية وتشفعه القدرة الفنية ، والحصيلة اللغوية شرع باستقصاء معاني أبي الطيب المتنبي في ضوء معايير تتكئ على التحليل الفني إذ ((ينبغي على ان وكيع ان يسلك منهجاً يبيح له تحقيق ما سعى إليه ، ويوصد باب الإبداع في وجه مريدي أبي الطيب))[5].

---

[1] – المنصف :3/1.

[2] – خطاب الضد ,مفهومه , نشأته , آلياته , مجالات عمله :24.

[3] –كتاب المنصف للسارق والمسروق منه في اظهار سرقات ابي الطيب المتنبي بين الحيف والانصاف :110.

[4] –كتاب المنصف للسارق والمسروق منه في اظهار سرقات ابي الطيب المتنبي بين الحيف والانصاف:110.

[5] – ينظر المصدر نفسه والصفحة .

إن الحجاج العقلي الذي اعتمد عليه ابن وكيع التنيسي أوجب عليه الغوص في ثنائيات الموازنات (السرقات) ، والإلماح إلى حدّها العقلي في التمايز بين الشعراء ، فقد دأبت كتب الموازنات على التفريق بين مرجعيات النص الشعرية ببوصلة السلب والإيجاب ، فلم يقل أحد ممن سبقوا ابن وكيع بالأصول العقلية للسرقات ، إذ كانت السرقة بينهم تشي بأنها مأخوذة عنوةً من شعر شاعر آخر ، مما يعني أنهم لم يسلبوا الشاعر شاعريته ، فما أغار عليه الشاعر هو سرقة من شعر غيره قد لا تحط من مكانته ، ذلك ان مواطن الإغارة على شعر الآخرين لا تشكل جل متون الدواوين الشعرية قيد الموازنة ، فاحتفظ الشعراء بكينوناتهم الشعرية ، وعدت الإغارة في المدونة النقدية الحديثة نوعاً من التناص في تشظياته المتنوعة ، إذ لم يكن التناص بوصفه مصطلحاً مرتبطاً بالأجناس الأدبية التي تحاكي البيئة المنتجة لها مفككاً بما يقوم عليه البناء اللغوي للمصطلح ، بل يدلف ضمن قضية السرقات الأدبية التي كانت لها القدرة على استيعابه ، وظل يمثل جزءاً منها[1] ، وتآلفت معه العقلية النقدية العربية ، وغدا الاشتراك في المعاني ، وتداولها ، مسألة طبيعية لا تقدح بأمانة الشاعر إلا ما كان بشكل متفرد[2] ، وحاول نقاد العصر الحديث أن يتلمسوا تأويلات أخرى لا تسيء إلى النقاد العرب القدماء ، وتفكك نظرتهم إلى السرقات ، فقالوا بلائقية التشابه بين النصوص وإمكانية تلمس كل جديد ومخترع عند الآخرين ، فشكلوا فكراً نقدياً جديداً ووعياً متقدماً للتناص [3].

وأما ابن وكيع التنيسي الذي جعل من كتابه المنصف ميداناً لإظهار حجاجه العقلي ، واعتمد على تقنيات التحليل العقلي المنهجي المتكامل ((فقد قسم السرقات على قسمين ، سرقات حسنة ، وسرقات مذمومة ، وفي كلتا الحالتين تعني ان الشاعر قد اتكأ على شعر غيره))[4] ، ذلك ان السرقة الحسنة لا تعني تلطيف المعنى ، أو صرف الخيال ، كما انها لا تعني ان يتشرب النص الشعري نصاً آخر ، بل تعني ثمة معايير عقلية تشكل من مركبات ذهنية ، ودعائم فلسفية يخضع إليها النص المسروق وفق تقنيات منهجية تشكل شروط الحسن والتجويد ، وتلك الاشتراطات جزء من المعايير العقلية التي تبيح صيرورة شعر الشاعر سرقة حسنة تسير في هدي الحجاج العقلي ، والرغبة والقصدية في إظهاره.

إن الشروط العقلية التي يحتكم إليها ابن وكيع التنيسي تنفر من التشكيل الجمالي ، والبناء الدلالي ، وتتجه إلى التقنين العقلي ، وبه تغدو السرقة قد أخضعت إلى مركبات عقلية أسهمت في تجويد معناها ومبناها ، فالمركبات لا تتأتى للمعنى بوساطة تطويره ، وإنما تدلف إليه عن طريق الردف الذي ينصرف

---

[1] – ينظر التناص في الشعر الجاهلي , دراسة نقديّة : 6.

[2] – ينظر الحيوان :311/2.

[3] – ينظر الخطاب الروائي :54.

[4] – كتاب المنصف للسارق والمسروق منه في اظهار سرقات ابي الطيب المتنبي بين الحيف والانصاف :110.

إلى إلحاق المعنى بمعنى وشرحه بلفظ أوضح فيتحقق ((استيفاء اللفظ الطويل في الموجز القليل))[1] ، ويحاول ابن وكيع ان يشير إلى ان الشعراء لم يكونوا بغافلين عن آليات اشتغال المنهج العقلي بل انه وجده في أساليبهم الشعرية يتجاذبون بفطرتهم الحادة ، فقد تنبه بشار إلى ان سارقه سلم الخاسر وما آلت إليه معانيه التي أسهرته ليالي ، وأتعبته فكرياً ، بعد ان راجعها السارق عقلياً ، وكساها لفظاً أخف ، أسهم في رواية شعره وإخماد شعر بشار[2] وبذلك حقق أول تقنيات المنهج العقلي الذي شقق ابن وكيع عن شرطه الأول.

وربما يميل الشعراء لأجل تحسين سرقتهم إلى ((نقل اللفظ الرذل إلى الرصين الجزل))[3]، مما يعني ان اللفظ قد نقل من بنية الخيال الشعري ، والانتماء المعجمي إلى الانتظام العقلي ، فأخرج من بنية جمالية وأدخل في بنية عقلية ، ذلك ان البنية الجمالية للفظ تتحقق فيها الشعرية بوساطة احد الركنين المبنى أو المعنى واما البنية العقلية تتطلب تساوي الركنين مبناه ومعناه ، إذ جاز في البناء الجمالي الاكتفاء بجماليات الدال وعلاقته بالمدلول ، في حين أوجب المنهج العقلي لطف المعنى وعدم ضعف المبنى[4] ويتناسل من لطف المعنى ، وعدم ضعف المعنى ، شرط عقلي آخر يتكافأ به المعنى والمبنى مما يعني ان الموازنة العقلية توازن بين المعنى المأنوس ، والمبنى القوي ، إذ تحسن السرقة إذا ما ((نقل ما قبح مبناه دون معناه إلى ما حسن مبناه ومعناه))[5] ، وبذلك لم يحد ابن وكيع عن منهجه العقلي ، فهو لم يؤسس لمعنى جميل ومعنى قبيح وإنما أراد المعنى الوافي بلفظ سديد إذ لا يمكن الفصل بين الاثنين[6] وفي عدم الفصل تغدو المباني خاضعة للعقل ، فلا تقبح بتنافر أصواتها وهيأتها ، ولا تكشف فتغوص معانيها ، وتتشعب دلالاتها ، ويشترط على الشاعر ان يقيس اللفظ بمعناه فيتساوى المعنى والمبنى ، فاستل ابن وكيع البرهان على المبنى القبيح من ثيمة عقلية حجاجية يتقاسمها طرفا الفلسفة العقلية (الجميل/القبيح) وينفذ من تلك الثنائية الفلسفية إلى خلاصة عقلية تربط الجميل بالسديد في المبنى والوافي بالجديد في المعنى.

وأما قدرة الشاعر على قلب المعاني ، وتوليد أفكار عقلية جديدة ، فينبغي على الناقد ان يحتكم إلى مخرجات منطقية قبل ان يقدم على تفكيك نصوص الشاعر ، إذ يُمكن إخضاع النص الشعري إلى ثنائية الجوهر والهيأة ، فيتحول المعنى بوساطة ((عكس ما يعد بالعكس ثناء ، بعد أن كان هجاء))[7] ذلك

---

[1] – المنصف :108.

[2] – ينظر المنصف :11/1, وفيات الاعيان :352/2, الصناعتين :214.

[3] – المنصف :12/1.

[4] – المصدر نفسه :12/1.

[5] – المصدر نفسه :13/1.

[6] – المصدر نفسه :14/1.

[7] – المصدر نفسه :14/1.

ان الثبات من صفات الجوهر ، واما نفي الثبات فأنه كينونة جديدة يتحول بها الجوهر من السلب إلى الإيجاب ، وينقلب الهجاء إلى ثناء فلا يحتجب المعروف ، ويحرم العرض[1].

ومن متبنيات ابن وكيع في منهجه العقلي القصدية في المعاني ، ولاشك ان القصدية تتضاد مع التأويل ، وتجنح إلى ترجيح دلالة واحدة لا يمكن الاختلاف عليها عقلياً ، فيتحقق الاقتفاء بين الشعراء ، وتقع السرقة ، ويتم ((استخراج معنى من معنى احتذي عليه ، وان فارق ما قصد به إليه))[2] فلا دلالة عميقة ودلالة سطحية في النص ، وإنما قصدية ولا قصدية ، فالقصدية هي التي توجب ذهاب المعنى إلى الحلول الجبرية ، ذلك ان اللغة بناء ، والقصدية إلزام ، فاللغة وان حافظت على مبناها ، بالقصدية يتغير معناها[3].

ويتوقف ابن وكيع طويلاً حول التنازع الفكري للشعراء ، إذ يعني إعادة إنتاج الأفكار في ضوء منهجه العقلي اتفاقاً في المعاني ، وافتراقاً في المباني ، ولاشك ان الحسن يبدو في مباني الشاعر الثاني بعد ان أعاد أفكار الشاعر الأول في ((توليد كلام من كلام لفظهما مفترق ، ومعناهما متفق))[4] ، فمثلما كانت القصدية في شرطه الخامس تخرج معنىً من معنى احتذي عليه ، فأنها تأصل المعنى عقلياً مهما اختلفت الألفاظ الدالة عليه ، ويحيل استخراج المعنى ، واحتفاظه بقصديته على دقة فطنة السارق[5] ، ويلمح الطرف الآخر من تلك المقولة إلى أن المعاني مطروحة في الطريق والشأن في اختلاف الألفاظ الدالة عليها[6] فالقصدية ثابتة مستقرة ، والدلالة نسبية متغيرة ، وربما أعاد ابن وكيع في شرطه هذا اشتغالات الثنائية الفلسفية الجوهر (المعنى) والمظهر أو الهيأة (اللغة).

ويقترب ابن وكيع في سابع مقاييسه العقلية مما مر بنا إذ يتطلب ((توليد معان مستحسنات في ألفاظ مختلفات))[7] فجعل القصدية العقلية قطب الرحى الذي أدار عليه ابن وكيع منهجه العقلي ، فاختلاف فاختلاف الألفاظ لا يعني افتراقها ، فهي وإن اختلفت فإنها في تقاربها تولد معان مختلفة أيضاً ، فإذا كانت الألفاظ المختلفة تولدها القصدية العقلية ، فإنها لا تضمر في تقارب ألفاظ شاعرين، مما يشي بأن ابن وكيع التنيسي يجيز الاقتباس مع التصرف به قليلاً ، على ان يتم التصرف بالألفاظ دون المعاني ،

---

[1] – المصدر نفسه :1/14-15.

[2] – المصدر نفسه :1/15.

[3] – المصدر نفسه :1/15.

[4] – المنصف :1/16

[5] – المصدر نفسه :1/17.

[6] – ينظر البيان والتبيين :1/14.

[7] – المنصف :1/17,ومنهاج البلغاء وسراج الادباء :364.

ورجحان الاستحسان خلاصة فلسفية لحسن التصرف باللفظ ، فالتزام القصدية والتصرف بالمعنى عند الشعراء أسدُ باب ، وأقله وجود لحاجة الشاعر إلى فطنة كبيرة[1] ، ويندر الشعراء المولدون للمعاني المتقاربة والألفاظ المناسبة[2].

ويشقق ابن وكيع في ثامن شروطه عن استحسان السرقة الاحتكام إلى العقل ، وبه يتم ترجيح مبتدعها على متبعها ، فلا خير من ((مساواة الآخذ المأخوذ منه في الكلام ، حتى لا يزيد نظام على نظام ، وان كان الأول أحق به لأنه ابتدع والثاني اتبع))[3] ، فالمساواة بين شاعرين أحدهما ابتدع والثاني اتبع تعني عدم الترجيح بينهما بالاعتماد على النص ، وإنما على أساس الزمن ، فالمسروق منه أحق بالأرجحية لأنه أسبق زمناً ، بيد ان المنهج العقلي الذي خطه ابن وكيع لا يكتفي بالأرجحية الزمنية معياراً للتفاضل ، بل يلج إلى الموازنة العقلية بين النصين ، ذلك أن رجحان الأول لا تعني حيازة النص زمنياً ، بل زيادة الثاني معنى في النص تبيح له أخذه شرط التجويد ، وبالأخذ والتجويد تتحقق آليات اشتغال المنهج العقلي ، فتحسن السرقة.

ولما كان المنهج العقلي عند ابن وكيع التنيسي يتوخى المعايير المعنوية بوصفها وحدات قياسية تتلاشى أمامها المباني اللغوية ، فانه يستقصي تمام المعنى أو ما تحقق منه ليكون معياراً عقلياً يحتكم إليه في الموازنة بين الشعراء ، فتتحقق ((مماثلة السارق للمسروق منه في كلامه ، بزيادة في المعنى ما هو من تمامه))[4] ، ، فالسرقة لا تعد عيباً إذا أحسَّ الآخذ نقصان المعنى عقلياً ، ويشي نهج ابن وكيع بان وجود المعاني لا يتطابق مع جوهر للمادة ، فالمادة فلسفياً هي الكمال ، والكمال إتمام ، والإتمام إحسان في المعنى الناقص يتحقق في شعريته أو تأكيده[5].

ويختم ابن وكيع معاييره العقلية في استحسان السرقات الشعرية ويكمل أركان منهجه العقلي في معياره العاشر ((رجحان السارق على المسروق منه بزيادة لفظه على لفظ من أخذ منه))[6]. فيتناسل هذا المعيار مما سبقه ، ذلك أن زيادة المعاني المجردة تتأتى من زيادة المباني مع خلوّها من الحشو ، وبذلك يخلص ابن وكيع في شرطه العاشر إلى ان قصور المعاني عن المباني يعني تسرب الحشو إلى المباني ، واما استبدال الحشو بمباني دالة على معانيها ، فيعني إضافة معنى على ما أصله النقصان ، والنقصان والتمام في المعاني مسألة عقلية شأنه شأن المركبات ، كلما ازدادت مادتها تغيرت صورتها.

---

[1] – ينظر المنصف :17/1.

[2] – المصدر نفسه :17/1.

[3] – المصدر نفسه :18/1.

[4] – المصدر نفسه :18/1.

[5] – المصدر نفسه :19/1-21.

[6] – المصدر نفسه :21/1.

إن معايير تحسين السرقة التي شققها ابن وكيع في كتابه المنصف لم تكن بدعاً من الفراغ ، وإنما هي حجاج منطقي مستوحى من مقولات علم المنطق المدغمة بمقدمات فلسفية تجعل العقل الثيمة الأعلى في التفكير وتربط الأسباب بالنتائج ، فالتمام والنقصان ، والحشو والزيادة ، والابتداع والإتباع ، والحسن والقبيح ، والرذل والرصين ، والعكس والثبات ، والقصدية واللاقصدية ، مصطلحات عقلية مستدعاة من الحجاج والتدليل ، وممهورة بمعان عقلية في وظيفتها النقدية.

وأما عدم استيفاء تلك المعايير العقلية فيدلف الشاعر به إلى السرقات المذمومة ، ولاشك أن ذلك معياراً نقدياً آخر يقوم الذم وتعرية السارق عقلياً من فطنته العقلية[1] وفي المساواة بين الآخذ والمأخوذ منه فلا سرقة حقة[2].

ولم يكن باستطاعة المنهج العقلي المجترح عند ابن وكيع التنيسي ان يفكك التداخل البنائي بين اللفظ والمعنى إذ ظلت المعايير العقلية تدور حول لبس المعاني للألفاظ ، مما أوجب على ابن وكيع ان يعرض النص على المعايير تراتبياً ، فان عجز عنه معيار أظهر إمكانية محاكمته في معيار آخر ، وليس هناك دليل أظهر على منهج ابن وكيع العقلي من قوله ((وقد آن لنا ان نذكر ما قصدناه من إظهار سرقاته ، وإن مرّ بنا أثناء ذلك معنى مستحيل ، أو بيت لفظه غث ، أو إعراب فاسد ، ذكرناه احتراساً من توهم الغفلة علينا ، وما نأتي في كل ذلك إلا ما ننسب به إلى العدل ويقنع شاهده العقل))[3].

وفي الختام يظهر أن المنهج العقلي ما هو الا نتاج لخصوصيّة ثقافيّة، وتحوّلات فكرية واجتماعية مغايرة مرّ بها النقد العربي القديم، ولهذا لا يمكن تجريدها من خصوصيتها الثقافية وحمولاتها الفكريّة، فهي بوصفها نظريات أو مقاربات أو أدوات بحثية تحليلية للأدب تحمل مضامين ثقافية تجعلها متلائمة مع بيئتها الحضارية العربيّة , إن ازدهار المعارف في النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة جاء نتيجة المثاقفة و ازدهار علم الكلام و تحول التصوف الاسلامى من مجال الممارسة الزهدية إلى نظرية في المعرفة و البحث في حقائق الوجود والكون نقل الفكر العربي من مرحلة المنقول و التسليم إلى مرحلة المعقول فلم تعد المرحلة قائمة على النقل و لم تعد تقوم على حرفية النص بل أصبحت عملا تأوليا يقوم أساسا على

---

[1] – المصدر نفسه :10/1.

[2] – المصدر نفسه :10/1.

[3] – المصدر نفسه :39/1.

العقل فضلا عن هذا اشار البحث الى وجود هذا المنهج في كتب الوساطات الادبية والموازنات ومنها كتاب التنيّسي ليبين الثقافة العقليّة التي تحلى بها الناقد العربي القديم .

المصادر

1- اسرار البلاغة , عبد القاهر الجرجاني , تعليق محمود محمد شاكر , مطبعة المدني , القاهرة ,دار المدني , جدة ,د.ت .

2- البيان والتبيين ، الجاحظ ، تح : عبدالسلام هارون , مكتبة الخانجي ، مصر ، ط2 ،1960 .

3- تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط2 ،1978 .

4- التناص في الشعر الجاهلي – دراسة نقدية ، علي حسين سلطان ، اطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد ، 2006.

5- الحجاج في القرآن من خلال اهم خصائصه الاسلوبية ,د.عبد الله صوله ,دار الفارابي , بيروت , ط1, 2001م.

6- الحجاج والاستدلال الحجاجي , عناصر استقصاء نظري , حبيب اعراب , مجلة عالم الفكر , ع1,مج30,2001م.

7- الحيوان ، الجاحظ ، تح : عبد السلام هارون ، ط12 ، 1965.

8- الخطاب الروائي ، ميخائيل باختين ، تر: محمد برادة ، دار الفكر ، القاهرة ، ط1 ، 1987.

9- خطاب الضد ـ مفهومه ـ نشأته ـ آلياته ـ د. عبد الواسع الحميري ، دار الزمان ، دمشق ، ط1 ، 2008 .

10- قراءة التراث النقدي ,الدكتور جابر عصفور , عين للدراسات والبحوث ,ط1,1994م.

11- كتاب الصناعتين ، أبو هلال العسكري ،القاهرة ، 1952 .

12- كتاب المنصف للسارق والمسروق منه في إظهار سرقات أبي الطيب المتنبي ، ابن وكيع ، تح : د. محمد يوسف نجم ، ط1 ، الكويت ، 1984.

13- كتاب المنصف للسارق والمسروق منه في إظهار سرقة أبي الطيب المتنبي بين الحيف والإنصاف ، عواد كاظم لفته ، مجلة جامعة ذي قار ، ع3 ، مج2 ، 2006 0

14- مفتاح العلوم , السكاكي ,تحقيق وتقديم د.عبد الحميد هنداوي , منشورات دار الكتب العلمية , بيروت – لبنان ,ط1, 2000م.

15- منزلة العواطف في بظريات الحجاج ، د: حاتم عبيد ، مجلة عالم الفكر ، مج 40 ،ع2 ،2011 .

16- منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجني ، تح : محمد الحبيب بن خوجه : بيروت : د. ت .

17- موسوعة الشفاء ,ابن سينا , المطابع الاميرية , القاهرة ,د.ت.

18- نظرية الشعر عند الفلاسة المسلمين من الكندي حتى ابن رشد , د.الفت كمال الروابي, التنوير ,ط1,1983م.

19- وفيات الأعيان:ابن خلكان : تح : د. إحسان عباس ، دار الثقافة، بيروت ، 1968

.....